



الأحد 21 ديسمبر 2014 12:12 م

بقلم محمد منصور

أعلم أن ما نقاسيه في معركة الحرية ، و أدرك ما يحز بنفس كل حر كريم ، أثخنه جراح المعركة و هو ثابت كالجبل الأشم ، لم يثلم له الانقلاب عزمًا ، بل صمم أن ينال حريته و لو ملئت له بالموت طرق .

إلى مثل هذا و إخوانه البواسل ، من الذين أكبرت فيهم عزمًا حملوا بها عبئًا ثقیلاً من الجلد المرير ، و صدق عزم كفكفوا به غرور المفسدين ، و كفاحاً ضربوا به أروع الأمثال ، إلى هؤلاء أهديهم ما يضمن تضميد الجراح ، و تصليب الصف ، و إنعاش الإباء في الصدر ، إنه قرآن ربنا (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . إن الله مع الصابرين) .

و لا أجد من يفتق معنى الآية و ينشر ظلالها على أرواحكم إلا من أكرمه الله بالشهادة على نفس الطريق ، ذلكم سيد قطب رحمه الله ، إذ يقول :

(يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ؛ والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات ؛ والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب ، مجتدة القوى ، يقظة للمداخل والمخارج . . ولا بد من الصبر في هذا كله . . لا بد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصي ، والصبر على جهاد المشاقيق لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بقاء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقل العناد ، ومضاضة الإعراض .

وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصبر ، أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد . ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ؛ فهي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي لا ينفد . المعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب ؛ فيمتد حب الصبر ولا ينقطع . ثم يضيف إلى الصبر ، الرضى والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين .

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى ؛ يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة . حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب . حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويًا ، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق .

هنا تبدو قيمة الصلاة . . إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية . إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض . إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويغني . إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير . إنها الروح والندى والظلال في الهجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود . . ومن هنا كان رسول الله [ص] إذا كان في الشدة قال : " أرحنا بها يا بلال " . . ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله .

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وأنها مدد الروح . وأنها جلاء القلب . وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر . . إن الله سبحانه حينما انتدب محمدا [ص] للدور الكبير الشاق الثقيل ، قال له:

يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا). . فكان الإعداد للقول الثقيل ، والتكليف الشاق ، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن . . إنها العبادة التي تفتح القلب ، وتوثق الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان . ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام . . إلى الصبر وإلى الصلاة . .

ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه : (إن الله مع الصابرين). .

معهم ,يؤيدهم , ويثبتهم , ويقويهم , ويؤنسهم , ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم , ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة , وقوتهم الضعيفة , إنما يمدّهم حين ينفذ زادهم , ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق . . وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا . . ويختتم النداء بذلك التشجيع العجيب : (إن الله مع الصابرين).